فصلية علمية- محكمة نصف سنوية. دراسات حديثة في نهج البلاغة. السنة الثانية، العدد الثاني (المتوالي۴).
ربيع وصيف ۱۳۹۸ش/ ١٤٤٠ق من صفحة ۹۱ الى ۱۰۲

Biannual Journal *Current Studies in Nahj al- Balaghah*.
Vol. 2, No. 2, Spring & Summer 2019; (Issue 4). pp. 91-102

صورة الموت في نهج البلاغة

محمود كريمي بنادكوكي[١]، روح‌أله كريمي[٢]

تأريخ الاستلام: ١٤٣٧/٠٨/١٦ تأريخ القبول: ١٤٣٨/٠٤/١٦

١. أستاذ مشارك في علوم القرآن والحديث، جامعة الإمام الصادق (ع) (الكاتب المسؤول)؛ karimiimahmoud@gmail.com
٢. طالب دكتوراه في علوم و معارف نهج البلاغة بجامعة بيام نور، طهران جنوب؛ karimi1219@gmail.com

Imagery of Death in Nahj al-Balaghah Imagery of Death in Nahj al-Balaghah

Mahmoud Karimi Banadkooki[1], Ruhollah Karimi[2]

Received: 23 May 2016 **Accepted: 13 March 2017**

1. Associate Professor, Department of Quran and Hadith Studies, Imam Sadiq University, Karimiimahmoud@gmail.com
2. Ph.D student in sciences and teachings of Nahj al Balaghah, Payame Noor Univerrsity, karimi1219@gmail.com

الملخص

تعتبر الصور البيانية من أكثر أدوات نهج البلاغة تأثيرًا وفاعلية لنقل الأفكار والمفاهيم إلى الجمهور. فيقدم الإمام علي (ع) المعاني المجردة للصور البيانية الملموسة والخيالية في أجزاء مختلفة من نهج البلاغة حيث يستخدم عنصر التصوير لتقريب للعقل من الحقائق ومساعدته على فهمها.

إن دقة تصويره لموضوع الموت يدخل بالمرء إلى وادي الخيال حيث يشعر بنفسه وكأنه في ذلك المشهد. كما أن دقة اختيار الكلمات وطريقة الجمع بينها والاستعانة بمجموعة متنوعة من الصور البلاغية إلى جانب الألحان الممتعة للكلمات تضفي على صوره البيانية عذوبة خاصة.

يتناول هذا المقال ثماني حالات من تصوير الموت في خطب نهج البلاغة والتي تحتضن أيضًا سائر صور الموت الأخرى. فلقد تم تصوير وجه الموت الرهيب في هذه الصور البيانية بحيث يثير العواطف ويهز أعماق الوجود الإنساني ويوقظ الضمير النائم.

الكلمات المفتاحية: التصوير، الصور البيانية، الموت، الإمام علي (ع)، *نهج البلاغة*.

Abstract

Imagery is one of the most effective devices in Nahj al-Balaghah towards communicating thoughts and concepts to the audience. Imam Ali makes abstract concepts sensible and imaginable through literary images. He has made the best use of imagery towards making peoples' minds familiar with the realities and making pure facts understandable in different parts of Nahj al Balaghah. The imagery of death by Imam Ali immerses people in the field of imagination so that they feel they are present in that scene. Great care in selection of words, the way of putting them into phrases, and benefitting from various types of rhetoric forms along with the nice melody of phrases have made the descriptions of Imam so attractive that thrill and influence all the audience. The present article has studied and analyzed eight instances of imagery of death in Nahj al -Balaghah sermons which represent other images of death within themselves in some way. The terrible picture of death in these representations are so nicely illustrated that they raise emotions, shock human being thoroughly, and awaken the sleeping conscience.

Keywords: image, imagery, death, Imam Ali (p.b.u.h), Nahj al- Balaghah.

١. المقدمة

طالما كان الكلام الموزون والمزين بمختلف الحلي الأدبية، أفضل وسيلة لنقل الأفكار والعواطف الإنسانية من العقول والقلوب الشغوفة إلى الأرواح والأنفس العطشى والتائقة للمعرفة في مختلف الأزمان والعصور. لا شيء مثل الخطابة المزركشة بالصناعات الأدبية لديه القدرة على تجسيد ما في الضمير، وإن دور الفصاحة والبلاغة في التأثير على الكلام لا يمكن إنكاره.

إن أنجع وسيلة لنقل الأفكار والمفاهيم إلى الجمهور هي تزيين هذه المفاهيم بالصور البيانية. "الصورة" هي أداة خاصة ومميزة في أسلوب التعبير القرآني، حيث يجعل القرآن المعاني المجردة ملموسة من خلال الصور البيانية (سيد قطب، ١٣٦٧: ٤٤).

يعتبر سيد قطب، المفكر المصري، أحد أهم علماء القرآن الذين أولوا اهتمامًا خاصًا بالصور البيانية في القرآن الكريم، حيث ألف كتابًا بعنوان "التصوير الفني في القرآن" عام ١٩٤٥م. يعتبر سيد قطب أن الصورة الفنية للقرآن عبارة عن صورة تمتزج بالألوان والحركة والموسيقى وصوت الكلمات وأنغام العبارات وسجع الجمل التي تملأ الرؤية والسمع والشعور والخيال والوعي والضمير (م. ن: ٤٥).

ويتماشى نهج البلاغة بصفته "شقيق القرآن" أيضًا مع القرآن في هذه الحالة، وتتوافق أفكار هذا الكتاب القيم للإمام علي (ع) ومفاهيمه مع أدوات الصور البيانية لتوعية الجمهور بمختلف المفاهيم ومساعدته على فهمها بشكل أسهل وأعمق، لكي يميز بين طريق النور وطريق الظلام.

ولعنصر الصورة في نهج البلاغة، أو بمعنى آخر الصور البيانية التي تظهر في نهج البلاغة، مكانة متميزة في نقل المفاهيم. يستخدم الإمام علي (ع) الصور البيانية في نصوص مختلفة من نهج البلاغة لمساعدة العقل على فهم الحقائق بشكل ملموس وجعل الرسالة مفهومة بطريقة معبرة وعقلانية. لذلك، يلعب التصوير البياني دورًا محوريًا في خطاب نهج البلاغة، واستخدام الصور البيانية أمر لا مفر منه في نقل المفاهيم وفهم الحقائق.

إحدى هذه الصور البيانية المستخدمة في نهج البلاغة هي تصوير الموت، إن لوصف الإمام علي (ع) للموت ميزات فريدة لا يمكن رؤيتها في أي من الأعمال الأدبية الأخرى. إن دقة تصويره (ع) لموضوع الموت يدخل بالمرء إلى وادي الخيال حيث يشعر بنفسه وكأنه في ذلك المشهد. كما أن دقة اختيار الكلمات وطريقة الجمع بينها، والاستعانة بمجموعة متنوعة من الصور البلاغية إلى جانب الألحان الممتعة للكلمات، تضفي على صوره البيانية عذوبة خاصة تجذب أي مخاطب.

ويعتبر جورج جرداق أن تصوير الموت من قبل أمير المؤمنين (ع) معجزة فنية تمكن الفنان من خلالها من تصوير المشاهد الطبيعية المخيفة بسهولة بالاستعانة بفنه، ويرى أن عليّ ابن أبي طالب يبلغ ذروة الفن في هذه الحالة، فقد رسم وجه الموت الرهيب بقطعة فنية جميلة وأدلى بكلمات حوله مستوحاة من المشاعر العميقة والخيال الخصب، ليرسم صورة بيانية تعبر عن عظمة فنية لا يمكن لأحد أن يبلغها، حتى أن الفنانين العباقرة الأوروبيين عجزوا عن تصوير وجه الموت الرهيب بالرسم والشعر الجميل (جرداق، ١٣٥٦:١٤٩).

نظرًا لهذه الميزات، سنقوم في هذه المقالة بفحص وتحليل زاوية من الصور البيانية المستخدمة في تصوير الموت في خطب نهج البلاغة.

١.١. ما هي الصورة؟

الصورة هي الشكل وجمعها صُوَر و صِوَر (ابن منظور، ١٩٩٤: ٤/ ٤٧٣) وهي اسم مصدر من فعل صَوَّرَ والمصدر تصوير. ويعتبر الرماني (ت ٣٨٦ هـ) أن الصورة تجسيد للشؤون المعنوية في إطار الحسيات البصرية (شادي، ١٩٩١: ١٨) أما أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥ هـ) فيرى أن جمال الاستعارات القرآنية يكمن في إظهار ما بين السطور وتجسيده (العسكري، ١٩٨١ :٢٢٩) ويعتبر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ) أن الصور البيانية مثل التشبيه والتمثيل والاستعارة من أهم العناصر المكونة للصورة (الراغب، ١٣٨٧:٣٢).

وفقًا لرأي السيد قطب، المفكر والمنظر المصري فإن الصورة تعني أي نوع من العرض الحسي للمعنى؛ سواء كانت هذه البيانات الحسية تعتمد على أشكال الخطابة

التقليدية أو على عبارات حقيقية أخرى تحفز مخيلة الجمهور، حتى لو كانت غير مسموح بها (م. ن: ٤٨).

ويرى الشاعر البريطاني سي دي لويس أن الصورة "لوحة مصنوعة من الكلمات". إنه يعتقد أن التشبيه أو الاستعارة يمكن أن تخلق صورة، ولكن في الوقت نفسه يمكن العثور على بعض التعابير الوصفية التي تتمتع بالقدرة أيضًا على إنشاء صور رائعة بدون مثل هذه العناصر (صباغ، ١٤٠٩: ٤٨٩).

في قاموس سخن الكبير، تعرف الصورة الأدبية بأنها أي نوع من أنواع الصور البلاغية المستخدمة بأشكال التشبيه والاستعارة والمجاز والكناية وما شابه ذلك بغرض إنشاء صور ذهنية ودوافع عاطفية (أنوري، ١٣٨٢: ١٧٦٦/٣).

يعتبر البعض أن الصورة هي التصور، تصور للظواهر والمفاهيم والمواضيع وهي وليدة العواطف والفكر (الكواز، ١٣٨٦: ٣٥٧). لكن التصور جزء من الصورة، لأن التصور يعني إضفاء الجانب الحسي على شيء معنوي والصورة هي تشبيه المعول بالمحسوس والمحسوس بالمحسوس، وهو مصطلح شامل يستخدم أدوات متنوعة مثل الحروف والأفعال والحوار وما إلى ذلك (ياسوف، ٢٠٠٩: ١٠٩).

باختصار، ينبغي القول أنه في الصورة، يتم استخدام الكلام بطريقة تتجسد فيها المفاهيم والظواهر لدى الجمهور في إطار الأشكال والمناظر المشهودة، وهكذا يخرج الكلام من حيز الخمول والضعف، ليدخل إلى عالم حي ونابض بالحياة مما يؤدي إلى تغلغله في أعماق أنفس الجمهور.

يستخدم الإمام علي (ع) طرقًا مختلفة لإنشاء الصور البيانية (التصوير)، ومنها: استخدام التعابير الديناميكية والكلمات الحيوية والأساليب الخطابية والفنون البلاغية والصناعات الأدبية واللفظية، والوصف الدقيق للغاية للشؤون والظواهر وإضفاء الروح واستنطاق الكائنات غير الحية.

٢. الموت لغةً واصطلاحًا

يرى ابن منظور في لسان العرب والطريحي في مجمع البحرين أن الموت هو ضد الحياة (ابن منظور، ١٩٩٤: ٢/ ٩٠) و(الطريحي، ١٣٧٥ :٢٢١/٢).

يعتبر ابن فارس أن الموت هو ذهاب القوة من الشيء وهو ضد الحياة (ابن فارس، ١٤٠٤: ٢٨٣/٥).

الموت يعني زوال الحياة (المصطفوي، ١٣٦٠: ١٩٦/١١).

يقسم الراغب في مفرداته الموت إلى عدة فئات:

أ) الموت يعني فقدان القوة النامية: يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها (الروم/ ١٩).

ب) الموت يعني فقدان قوة الحواس: يا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هذا (مريم/ ٢٣).

ج) الموت يعني تدمير القوة العاقلة، وهو نفس الجهل: إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى (النمل/ ٨٠).

د) الحزن الذي يطغى على الحياة ويعكر صفوها: وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَما هُوَ بِمَيِّتٍ (إبراهيم/ ١٧).

هـ) النوم موت خفيف والموت نوم ثقيل: وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ (الأنعام/ ٦٠) (الراغب الإصفهاني، ١٩٩٢: ٧٨١/١).

في القرآن، تم استخدام كلمتين للتعبير عن الموت وهما: موت وتوفى، "الموت" هو زوال الحياة وآثارها ويرتبط بالجسم، ولكن كلمة "توفي" فهي من جذر (وفى) وتعني القبض على شيء بشكل كامل وتام (الطباطبائي، ١٣٩٣ : ٣٥٦/١٢) وترتبط بروح الإنسان ونفسه. بمعنى آخر، عندما يموت الجسد، يتوقف عن الحركة ويتوقف نشاط القوى الجسدية (الموت)، وتؤخذ الروح من قبل الملائكة التي تقبض الأرواح وتستمر في العيش في مكان آخر.

في القرآن، لا تُستخدم كلمة "الموت" في ما يتعلق بالروح والنفس المجردة. يقول العلامة الطباطبائي: معنى النفس في الآية الكريمة (كل نفس ذائقة الموت) الإنسان وليس روح الإنسان (م. ن: ٢٨٦/١٤).

المقصود بمعنى الموت في هذا المقال هو المعنى الذي يشير إلى الجسد الترابي، وبمعنى آخر، فإن المقصود من الموت في أجزاء مختلفة من هذا البحث هو فقدان الجسم لقوة الحركة وتوقف نشاط الجسم في نفس الوقت الذي تخرج فيه الروح. من المهم أيضًا ملاحظة أن هذا المقال يبحث في ثماني صور من صور الموت في خطب نهج البلاغة، وينبغي أن يقال إن هذه الحالات تحتضن بطريقة ما صورًا أخرى للموت.

۱.۲. صور الموت في نهج البلاغة

قدم الإمام علي (ع) صورًا مختلفة للموت في كلامه، وسوف نتطرق فيمايلي لثماني صور من أبرز صور الموت في نهج البلاغة.

الصورة الأولى: سهام الموت: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنْتُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا غَرَضٌ تَنْتَضِلُ فِيهِ الْمَنَايَا.» (الخطبة ١٤٤) ففي هذه الصورة التي قدمها الإمام علي (ع) للموت ويوجد مثال لها في الحكمة ١٩١ كذلك، نلاحظ وجود استعارة جميلة. لقد استخدم الإمام كلمة "غرض" كاستعارة للإنسان للدلالة على أن الإنسان نفسه يمهد الطريق أمام الموت من خلال أدوات مثل الأمراض والأعراض القاتلة.

قد ذكر صفة إطلاق الأسهم على الإنسان كما لو أن الموت يطلقها عليه. استخدمت كلمة غرض كاستعارة للإنسان لأنه هدف الموت الذي يصيبه بسبب الأمراض، كما تكون الأهداف هدفًا للأسهم التي تطلق عليها، وإن نسبة إطلاق الأسهم إلى الموت مجازية، لأن الإنسان عرضة لسهام الأمراض القاتلة، لذلك فإن المجاز مستخدم هنا في مفرد المنايا وفي جملة تنتضل فيه المنايا (ابن‌ميثم، ۱۳۷۵: ۵۸۰/۵).

يقول ابن أبي الحديد حول هذه العبارة: كأنه يجعل المنايا أشخاصا تتناضل بالسهام، من الناس من يموت قتلا، ومنهم من يموت غرقا، أو يتردى في بئر، أو تسقط عليه حائط، أو يموت على فراشه (ابن أبي الحديد، ۱٤۰٤: ۹۱/۹).

«غرض» بمعنى الهدف الذي تطلق عليه السهام. إن تعبير "تنتضل" يستعمل بالنسبة لأولئك الذين يشاركون في مسابقة رمي السهام، وهو يدل هنا على أن آفات العالم تتنافس من أجل استهداف حياة الإنسان. وتعبير "منايا" ومفرده "منيّة" يشير إلى الموت بأشكاله المختلفة، سواء أكان فرديًا أم جماعيًا (مكارم شيرازي، ۱۳۷۸: ٦۳۰/۵).

الصورة الثانية: الوقوع في مخالب المنية: «وَ انْتَفِعُوا بِالذِّكْرِ وَ الْمَوَاعِظِ فَكَأَنْ قَدْ عَلِقَتْكُمْ مَخَالِبُ الْمَنِيَّةِ وَ انْقَطَعَتْ مِنْكُمْ عَلَائِقُ الْأُمْنِيَّةِ وَ دَهِمَتْكُمْ مُفْظِعَاتُ الْأُمُورِ وَ السِّيَاقَةُ إِلَى الْوِرْدُ الْمَوْرُود» (الخطبة ۸۵).

في هذه اللوحة يصور الإمام علي (ع) ضعف الإنسان أمام قوة الموت ولحظات خروج الروح المؤلمة ويولي الانتباه إلى المواقف المؤلمة له. بما أن الموت ينتظر جميع البشر ولا يوجد تاريخ ووقت محدد له، ويمكن أن يأتي للإنسان في أية لحظة، فإن الإمام (ع) يعتبره أمرًا منفذًا.

"عقلتكم" من جذر "علق" وتعني هذه الكلمة العلاقة القوية والاهتمام الشديد بشيء ما. تُستخدم هذه الكلمة في حالة الحيوانات المفترسة التي تضغط بأنيابها على عنق فريستها وتمتص دمها أو تمزقها بمخالبها. في الجملة أعلاه، يشبه الإمام علي (ع) الموت بالحيوان المفترس، فكلمة "مخالب" جمع "مخلب" وهي عبارة عن أظافر الحيوانات ومشتقة من "خلب" وتعني تمزيق الجلد. "دهتمكم" من "دهم" أي غطى. يستخدم هذا المصطلح حيث يتغلب شيء على شيء آخر ويحيط به، وهذا هو ما تعنيه العبارة أعلاه. "المفظعات" من جذر "فظع" بمعنى التخويف والمبالغة وتطلق عبارة "مفظعات الأمور" على الأحداث الكبيرة والرهيبة والتي تغرق الإنسان في الخوف (م. ن: ٤۹۵/۳).

استخدمت كلمة "مخالب" لتصوير الموت على شكل استعارة بالكناية حيث جعلت كلمة "علوق" الاستعارة ترشيحية، حيث شبه الإمام (ع) الموت بحيوان مفترس يهجم على فريسته ممزقًا إياها إربًا إربًا. كما تشير العبارة إلى أن الآمال الدنيوية بما فيها المال والجاه والثروة وغيرها تزول بحلول الموت وتهجم على الإنسان سكرات الموت وعذاب القبر وسائر ما يتعلق بالآخرة. المقصود بالسياقة قيادة الإنسان إلى القبر وسوقه إلى محشره والمقصود بعبارة "ورد مورود" صحراء الحشر (ابن‌ميثم، ۱۳۷۵: ۵۸۵/۲).

الصورة الثالثة: القافلة المتحركة: «فَإِنَّ الْغَايَةَ أَمَامَكُمْ وَ إِنَّ وَرَاءَكُمُ السَّاعَةَ تَحْدُوكُمْ تَخَفَّفُوا تَلْحَقُوا فَإِنَّمَا يُنْتَظَرُ بِأَوَّلِكُمْ آخِرُكُمْ.» (الخطبة ۲۱) في وصف هذا الكلام الذي قاله الإمام (ع) يعتبر الشريف الرضي أنه يتفوق على أي كلام آخر سوى كلام الله والنبي محمد بشكل جلي. على سبيل المثال، لم يُسمع قء كلام أقصر وأكثر تعبيرًا ومعنىً من كلام الإمام علي (ع) وهو يقول تخفّفوا تلحقوا. كلام عميق أكثر من أي كلام آخر. هذه الجملة تروي العطش وتثلج الصدور.

في هذه اللوحة التي يوجد مثال عنها كذلك في الخطبة ١٦٧ يشير الإمام (ع) إلى حقيقة أن مجموعة العالم الإنساني هي في حكم قافلة واحدة تتحرك مجموعة في المقدمة، وأخرى في المنتصف وثالثة في نهاية القافلة، وكل يتبع طريقًا خاصًا له لكنهم ينضمون معًا في يوم القيامة العظيم.

يرجع تعبير "الغاية" (النهاية) حول القيامة والجنة وجهنم إلى حقيقة أن الحياة الدنيا هي مقدمة للحياة الأبدية في عالم آخر. ويقول (ع): "أَمَامَكُمْ"، أي لا شك في ذلك، وكائنًا من كنت وأينما ذهبت، فإن غايتك ومصيرك هناك (مكارم الشيرازي، ١٩٩٩: ١٧/٢).

المقصود بالساعة في هذا التعبير هو القيامة الصغرى، مما يعني أن الموت حتمي. السبب في أن القيامة الصغرى كامنة خلفنا هو أن الجنس البشري يكره الموت بشكل طبيعي ويهرب منه، ووفقًا للعادات والتقاليد، فإن ما يهرب الإنسان منه يقع وراءه، وبما أن الموت متأخر عن وجود الإنسان وسوف يدركه في النهاية، فإن تأخر الموت عقلي لكن الإمام (ع) يشبهه بشيء حسّي، حيث قام باستخدام كلمة "وراء" التي تعبر عن الجهات الحسية.

وإن غناء الموت للإنسان (تحدوكم) يعبر عن حقيقة أن ذكر الموت يزعج الإنسان ويسبب له الاضطراب ويدفعه إلى الاستعداد للقاء الله، وهو مثل الغناء الذي يدفع الإبل للسير لمسافات طويلة. وبهذه الطريقة، فإن الإنسان كالإبل، يقطع عن طريق الغناء المسافات الصعبة والشاقة، كما أنه يسير على طريق الآخرة.

إن إعجاز الإيجاز في عبارة (تخففوا تلحقوا) جاء بمعنى شرطي وعلى شكل استعارة كناية. كلمة " تلحقوا" هي نتيجة الشرط والحالة التي يؤدي إليها، أي أن خفة عبء الإنسان تجعله يصل إلى غايته. الخفة هنا إشارة إلى الزهد الحقيقي، الذي هو أقوى وسيلة للتقرب من الله تعالى. والمقصود بكلمة "تلحقوا" هو الوصول إلى درجات السابقين وهم أولياء الله تعالى (ابن ميثم، ١٣٧٥: ١ / ٦٥٧-٦٥٨).

في الصورة أعلاه، يؤدي التأكيد باستعمال "أنّ" والجمل الإسمية التي تستعمل للتأكيد وتكرار ضمير "كُم" والطباق بين الكلمات والموسيقى وألحان الكلمات إلى مضاعفة جمال الكلام وتأثيره.

الصورة الرابعة: مداهمة الموت للإنسان في ذروة جماحه: «دَهِمَتْهُ فَجَعَاتُ الْمَنِيَّةِ فِي غُبَّرِ جِمَاحِهِ وَ سَنَنِ مِرَاحِهِ- فَظَلَّ سَادِرًا وَ بَاتَ سَاهِرًا فِي غَمَرَاتِ الْآلَامِ وَ طَوَارِقِ الْأَوْجَاعِ وَ الْأَسْقَامِ بَيْنَ أَخٍ شَقِيقٍ وَ وَالِدٍ شَفِيقٍ وَ دَاعِيَةٍ بِالْوَيْلِ جَزَعًا وَ لَادِمَةٍ لِلصَّدْرِ قَلَقًا وَ الْمَرْءُ فِي سَكْرَةٍ مُلْهِثَةٍ وَ غَمْرَةٍ كَارِثَةٍ وَ أَنَّةٍ مُوجِعَةٍ وَ جَذْبَةٍ مُكْرِبَةٍ وَ سَوْقَةٍ مُتْعِبَةٍ ثُمَّ أُدْرِجَ فِي أَكْفَانِهِ مُبْلِسًا وَ جُذِبَ مُنْقَادًا سَلِسًا ثُمَّ أُلْقِيَ عَلَى الْأَعْوَادِ رَجِيعَ وَصَبٍ وَ نِضْوَ سَقَمٍ- تَحْمِلُهُ حَفَدَةُ الْوِلْدَانِ وَ حَشَدَةُ الْإِخْوَانِ إِلَى دَارِ غُرْبَتِهِ وَ مُنْقَطَعِ زَوْرَتِهِ وَ مُفْرَدِ وَحْشَتِهِ» (الخطبة ٨٣).

في هذه الكلمات، يقدم الإمام (ع) صورة عن نهاية عمر الإنسان الغافل المغرور المتمرد، حيث يصف اللحظات المؤلمة للاحتضار أثناء الأمراض المميتة وصراخ الأقارب والأصدقاء، ويصور هذه الحالة بشكل يهز القلوب.

في عبارة «دَهِمَتْهُ فَجَعَاتُ الْمَنِيَّةِ» «دهمته» من مادة «دهم» بمعنى شمل وغطى ويشير إلى أن آلام الموت ومشقاته تشبه الستارة التي تغطي الإنسان وتحيط به. في عبارة «غُبَّرِ جِمَاحِهِ» «غبّر» جمع «غابر» بمعنى باقٍ، أو بقي و«جماح» من مادة «جمح» بمعنى تمرد وطغى وانقاد لهوى النفس ويشير إلى إصرار الإنسان على التمرد. وفي عبارة «سَنَنِ مِرَاحِهِ »، «سنن» مفرد يعني الطريقة والتقليد و«مراح» من مادة «مرح» وهي شدة السرور والتي تقترن بالطغيان والتمرد واستخدام النعم الإلهية في سبيل الباطل (مكارم الشيرازي، ١٣٧٨ : ٤٣٢/٣). وهذا يشير إلى استمرار الإنسان في مسير الغفلة والطغيان.

«فظلّ سادرا» أي قضى يومه بالحيرة والإعراض، «و بات ساهرا» أي قضى ليله ساهرًا (شوشتري، ١٣٧٦: ١٦٨/١١). إن فعلي "ظل و بات" الناقصين يدلان على مشقات الليل والنهار ففعل ظل يدل على إنجاز عمل في النهار وفعل بات يتعلق بالليل (ابن منظور، ١٩٩٤: ٤١٥/١١) «سادرا» بمعنى متحير وهو كناية عن الألم الشديد والإعراض عن العلاج وكلمة «ساهرا» بمعناها الحقيقي تدل على أرق الفرد ليلًا بسبب ألمه، كما أن الكلمات ذات القافية الواحدة تزيد من جمال العبارات.

«فِي غَمَرَاتِ الْآلَامِ» يشبه الآلام بدوامات تبتلع

الإنسان. «وَ طَوَارِقِ الْأَوْجَاعِ وَ الْأَسْقَامِ» يشبه الآلام هنا بجيش يغزو الإنسان وهو في أوج جماحه وتمرده. في هذه الجملة تشبيه جميل واستعارة رائعة.

«بَيْنَ أَخٍ شَقِيقٍ وَ وَالِدٍ شَفِيقٍ وَ دَاعِيَةٍ بِالْوَيْلِ جَزَعًا وَ لَادِمَةٍ لِلصَّدْرِ قَلَقًا ». و«لادمة» من مادة «لدم» أي لطم شيئًا بشيء آخر ولذلك يطلق على النساء اللواتي يلطمن رؤوسهن وصدورهن في المصائب "لادمة" (مكارم الشيرازي، ۱۳۷۸: ۴۳۲/۳) «و داعية بالويل جزعا» إشارة إلى أمه وأخته. «و لادمة للصدر قلقا» إشاره إلى امرأته وابنته (شوشتري، ۱۳۷۶: ۱۶۹/۱۱).

ويمكن القول أن الجملة الأولى تشير إلى أخيه وأبيه والتالية إلى أخته القلقة والمرأة التي تلطم صدرها هي أمه. إن السجع ومراعاة النظير تزيد من روعة الجمل وتأثيرها.

«وَ الْمَرْءُ فِي سَكْرَةٍ مُلْهِثَةٍ وَ غَمْرَةٍ كَارِثَةٍ وَ أَنَّةٍ مُوجِعَةٍ وَ جَذْبَةٍ مُكْرِبَةٍ وَ سَوْقَةٍ مُتْعِبَةٍ »

«ملهثه» من مادة «لهث» أي أخرج الكلب لسانه من فمه عن العطش أو الضيق. تستعمل هذه الكلمة كذلك للدلالة على من يسعى وراء شيء ما بشدة (مكارم الشيرازي، ۱۳۷۸: ۴۳۳/۳) وهي كناية عن مشقات الموت. «ملهية» أي تلهي الانسان وتشغله. (ابن أبي الحديد، ۱۴۰۴: ۲۷۲/۶) و«غمرة» هي شدة الأمر وشمقته. «كارثة» (فاعلة) من "كرث" وكرثه الغم يكرثه بالضم، أي اشتد عليه وبلغ منه غاية المشقة.«أنّة» من الأنين و«موجعة» أي مؤلمة (مكارم الشيرازي، ۱۳۷۸: ۴۳۳/۳). «جذبة» جذب الملك الروح من الجسد، أو جذب الانسان إذا احتضر ليسجى. و «مكربة» من «كرب» أي المصيبة الشديدة و«جَذْبَةٍ مُكْرِبَةٍ» كناية عن مشقة طلوع الروح وخروجها من البدن (ابن أبي الحديد، ۱۴۰۴: ۲۷۲/۶).

ينبغي القول أن المقصود من عبارة "جَذْبَةٍ مُكْرِبَةٍ" والتي تصيب الإنسان عندما يموت، تشبه الشوكة التي تنكسر في عضو من أعضاء البدن، بل الألم الذي يشق الأنفاس ويشمل الأعضاء ويخترق أعماق الروح. إن آلام الروح تصيب العروق والوجود والأعماق، خلافًا للآلام الموضعية التي تصيب اليد أو الرجل، حيث تشبه نزع العروق والأعصاب من الجسم، أو شجيرة الشوك داخل البدن. عندما تصل المشقة إلى ذورتها، تموت الأعضاء بالتدريج مما يزيد من فترة طلوع الروح ويضاعف المشقة (ابن‌ميثم، ۱۳۷۵: ۵۶۰/۲).

«سوقة» من سياق الروح عند الموت. (ابن أبي الحديد، ۱۴۰۴: ۲۷۲/۶) و«متعبة» وتشير إلى شدة الألم والمشقة أثناء طلوع الروح والانتقال إلى عالم آخر. نلاحظ هنا أن استعمال السجع المتوازي والترصيع وألحان الكلمات وتركيبها يزيد من جاذبية النص وتأثيره.

«ثُمَّ أُدْرِجَ فِي أَكْفَانِهِ مُبْلِسًا وَ جُذِبَ مُنْقَادًا سَلِسًا» مبلسا ومنقادا كلمتان بصيغة الحال. «مبلس» في هذه الخطبة بمعنى يائس من العودة إلى الحياة (مكارم الشيرازي، ۱۳۷۸: ۴۳۶/۳). و«منقادا» بمعنى «مستسلم» وهي حالة الميت «سلسا» بمعنى «مرتخيًا» وتشير إلى كيفية نقل الميت إلى القبر.

«ثُمَّ أُلْقِيَ عَلَى الْأَعْوَادِ رَجِيعَ وَصَبٍ وَ نِضْوَ سَقَمٍ» والأعواد كناية عن التابوت (ابن أبي الحديد، ۱۴۰۴: ۲۷۲/۶). في عبارة «رَجِيعَ وَصَبٍ وَ نِضْوَ سَقَمٍ» استعارة مكنية. تمثل الجملتان صفتين تستخدمان للتعبير عن مرض يصيب البعير وينقص وزنه. وقد استعملهما الإمام علي (ع) للإنسان المريض. تطلق كلمة «رجيع» على الميت بسبب طولها وتكرارها وتستخدم كذلك للبعير الذي أضناه طول السفر وتكراره. وتستخدم كلمة «نضو» للتعبير عن الإرهاق والنحافة التي تحدث بسبب المرض والسفر الطويل الذي يقوم به البعير (ابن ميثم، ۱۳۷۵: ۵۶۱/۲).

«تَحْمِلُهُ حَفَدَةُ الْوِلْدَانِ وَ حَشَدَةُ الْإِخْوَانِ إِلَى دَارِ غُرْبَتِهِ وَ مُنْقَطَعِ زَوْرَتِهِ وَ مُفْرَدِ وَحْشَتِهِ» و«حفدة» جمع حفيد و«حشدة» أي مجموعة من الناس تجتمع للقيام بعمل (مكارم الشيرازي، ۱۳۷۸: ۴۳۷/۳). «دَارِ غُرْبَتِهِ وَ مُنْقَطَعِ زَوْرَتِهِ وَ مُفْرَدِ وَحْشَتِهِ» جميعها كناية عن القبر لانفراد الميت بعمله، واستيحاش الناس منه، حتى إذا انصرف المشيع وهو الخارج مع جنازته، أقعد في حفرته. هذا تصريح بعذاب القبر (ابن‌أبي‌الحديد، ۱۴۰۴: ۲۷۲/۶).

الصورة الخامسة: الموت؛ قرن غير مغلوب: «فَإِنَّ الْمَوْتَ هَادِمُ لَذَّاتِكُمْ- وَ مُكَدِّرُ شَهَوَاتِكُمْ وَ مُبَاعِدُ

طِيَّاتِكُمْ- زَائِرٌ غَيْرُ مَحْبُوبٍ وَ قِرْنٌ غَيْرُ مَغْلُوبٍ- وَ وَاتِرٌ غَيْرُ مَطْلُوبٍ- قَدْ أَعْلَقَتْكُمْ حَبَائِلُهُ- وَ تَكَنَّفَتْكُمْ غَوَائِلُهُ وَ أَقْصَدَتْكُمْ مَعَابِلُهُ- وَ عَظُمَتْ فِيكُمْ سَطْوَتُهُ وَ تَتَابَعَتْ عَلَيْكُمْ عَدْوَتُهُ وَ قَلَّتْ عَنْكُمْ نَبْوَتُهُ- فَيُوشِكُ أَنْ تَغْشَاكُمْ دَوَاجِي ظُلَلِهِ- وَ احْتِدَامُ عِلَلِهِ وَ حَنَادِسُ غَمَرَاتِهِ- وَ غَوَاشِي سَكَرَاتِهِ وَ أَلِيمُ إِرْهَاقِهِ- وَ دُجُوُّ أَطْبَاقِهِ وَ جُشُوبَةُ مَذَاقِهِ» (خطبه ٢٣٠).

إن هذه اللوحات الفنية التي نشاهدها تلفت الأنظار وتشغف القلوب وتوقظها وتوعيها. يظهر وجه الموت الرهيب في هذه اللوحة لدرجة أنه يثير المشاعر ويهز أعماق الوجود الإنساني ويوقظ الضمائر. وهذه الصور غنية بالديناميكية والإثارة والحيوية والحركة وتجسيد المفاهيم العقلية في شكل صور حية، إلى جانب السجع والاستعارات المتتالية والجميلة والموسيقى وتناغم الكلمات المفعمة بالحيوية مما يضاعف من جمال الكلمات وتأثيرها.

خصائص الموت الرهيبة:

١- يهدم لذات الحياة.« هَادِمُ لَذَّاتِكُمْ»

٢- يعكر الشهوات والرغبات.« مُكَدِّرُ شَهَوَاتِكُمْ»

٣- يباعد بين المنازل على طريق السفر، لأنه يقود الإنسان إلى الآخرة وهي أبعد منزل من منازل المرء عن أسرته وأهله، ولذلك فقد شبه منازل سفر الآخرة بالطيات « مُبَاعِدُ طِيَّاتِكُمْ».

٤- استخدم الإمام (ع) كلمة زائر لوصف الموت لأن الزائر يقبل على الإنسان وهو محبوب لكن الموت غير محبوب وقد ميزه الإمام علي (ع) عن الزائر المحبوب لكي يدرك الإنسان أن الموت غير محبوب، فعلى الإنسان أن يسعى في سبيل العمل الصالح «زَائِرٌ غَيْرُ مَحْبُوبٍ».

٥- استخدم الإمام كلمة "قرن" مع كلمة "غير مغلوب" كاستعارة لوصف الموت لكي يدفع الإنسان إلى الاستعداد لمواجهة الموت « قِرْنٌ غَيْرُ مَغْلُوبٍ».

٦- الموت مثل شخص لا نظير له في الشجاعة، وقد استخدم الإمام تعبير "واتر غير مطلوب" كاستعارة لوصف الموت لأنه يفصل القلوب عن بعضها ويميتها لكن لا يمكن لأحد أن يطلب الثأر منه ويسعى للانتقام منه « وَاتِرٌ غَيْرُ مَطْلُوبٍ».

٧- بما أن الموت يقضي على الإنسان، فقد شبهه الإمام علي (ع) بشراك الصيادين مستعملًا تعبير "أعلقتكم حبائله" للإشارة إلى الأمراض الجسمية التي تؤدي إلى الموت « قَدْ أَعْلَقَتْكُمْ حَبَائِلُهُ».

٨- إن مصائب الموت وغوائله تحيط بوجود الإنسان بأكمله « تَكَنَّفَتْكُمْ غَوَائِلُهُ».

٩- بما أن الآفات التي تؤدي إلى الموت تشبه السهام العريضة والحادة التي تدخل البدن وتؤذيه وتقتل الإنسان، لهذا السبب فقد استعمل الإمام (ع) كلمة معابل كاستعارة مع كلمة "أقصدتكم" أي استهدفتكم للتعبير عن الموت « أَقْصَدَتْكُمْ مَعَابِلُهُ».

١٠- شبه الموت بسلطان قاهر وغالب أو مفترس يمزق فريسته بمخالبه وأنيابه بسبب هيبته ولذلك استخدم كلمة "سطوة" للتعبير عنه «عَظُمَتْ فِيكُمْ سَطْوَتُهُ».

١١- شبه الموت بالظالم الذي يعتدي على الإنسان دون حق ولذلك فقد استخدم كلمة "عدوة" للتعبير عنه « تَتَابَعَتْ عَلَيْكُمْ عَدْوَتُهُ».

١٢- الموت سيف قاطع قلما تقل حدته واستخدمت كلمة نبوة كاستعارة للتعبير عن ذلك، ومن الجماليات الأدبية في الصفات التسع الأخيرة أن الإمام علي (ع) استعمل السجع المتوازي الذي بدأ بجملة زائر غير محبوب وانتهى بجملة قلّت عنكم نبوته «قَلَّتْ عَنْكُمْ نَبْوَتُهُ».

١٣- استعملت كلمة ظلّ التي تعبر عن شيء محسوس للتعبير عن الأمراض المميتة غير المحسوسة وشبهت تلك الأمراض بغيوم حالكة السواد، لأن الهدف هنا تخويف الإنسان من الموت والسحاب الحالك هو أفضل أداة في هذا المجال حيث يرى الإنسان نفسه على شفا حفرة من الموت حيث يقول تعالى: «وَ إِذا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ» وهذا بداية للخوف من الموت. «فَيُوشِكُ أَنْ تَغْشَاكُمْ دَوَاجِي ظُلَلِهِ».

١٤- شبه الموت برجل يمسك بالإنسان بإحكام وغضب فيقضي عليه، ولذلك فقد استعمل كلمة "احتدام" والتي تعني الحدة والغضب للتعبير عن الأمراض المميتة « وَاحْتِدَامُ عِلَلِهِ».

١٥- استعملت كلمة "حنادس" بمعنى الظلمات كاستعارة للتعبير عن سكرات الموت الذي يجب على الإنسان أن يخشاه « وَ حَنَادِسُ غَمَرَاتِهِ».

١٦- كما استعملت كلمة غواشي كاستعارة للتعبير عن الحالة التي تقترن بسكرات الموت فتسلب الإنسان الحواس الظاهرية والقوى الإدراكية « غَوَاشِي سَكَرَاتِهِ».

١٧- سرعة الموت وألمه التي تجلب على الإنسان مجموعة من الآلام تحيط به وترهقه «وَأَلِيمُ إِرْهَاقِهِ».

١٨- استعار لفظ الإطباق لحالاته المتزايدة و سكراته المتضاعفة الّتي بتضاعفها يزداد آلات إدراكه بعدا و انقطاعا عن المدركات الدنيويّة، و باعتبار انقطاع الإدراك بسبب تلك الحالات وصفها بالدجوّ و شدّة الظلمة، و يحتمل أن يريد بإطباقة إطباق القبور« وَدُجُوُّ أَطْبَاقِهِ».

١٩- وعبر الإمام (ع) عن استقبال الموت بعبارة "جوشبة مذاقه" فاستعار لفظ مذاقه لوجدانه باعتبار المشاركة في الإدراك، و باعتبار شدّة ايلامه وصفه بالجشوبة (ابن‌ميثم، ١٣٧٥: ٤/١٩٠-١٩٣).

الصورة السادسة: تجوال الموت داخل الإنسان:

«اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِمْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ وَ حَسْرَةُ الْفَوْتِ فَفَتَرَتْ لَهَا أَطْرَافُهُمْ وَ تَغَيَّرَتْ لَهَا أَلْوَانُهُمْ ثُمَّ ازْدَادَ الْمَوْتُ فِيهِمْ وُلُوجًا فَحِيلَ بَيْنَ أَحَدِهِمْ وَ بَيْنَ مَنْطِقِهِ وَإِنَّهُ لَبَيْنَ أَهْلِهِ يَنْظُرُ بِبَصَرِهِ- وَ يَسْمَعُ بِأُذُنِهِ عَلَى صِحَّةٍ مِنْ عَقْلِهِ- وَ بَقَاءٍ مِنْ لُبِّهِ- يُفَكِّرُ فِيمَ أَفْنَى عُمُرَهُ- وَ فِيمَ أَذْهَبَ دَهْرَه ..... فَلَمْ يَزَلِ الْمَوْتُ يُبَالِغُ فِي جَسَدِهِ حَتَّى خَالَطَ لِسَانُهُ سَمْعَهُ فَصَارَ بَيْنَ أَهْلِهِ لَا يَنْطِقُ بِلِسَانِهِ وَ لَا يَسْمَعُ بِسَمْعِهِ يُرَدِّدُ طَرْفَهُ بِالنَّظَرِ فِي وُجُوهِهِمْ يَرَى حَرَكَاتِ أَلْسِنَتِهِمْ وَ لَا يَسْمَعُ رَجْعَ كَلَامِهِمْ- ثُمَّ ازْدَادَ الْمَوْتُ الْتِيَاطًا بِهِ فَقُبِضَ بَصَرُهُ كَمَا قُبِضَ سَمْعُهُ وَ خَرَجَتِ الرُّوحُ مِنْ جَسَدِهِ فَصَارَ جِيفَةً بَيْنَ أَهْلِهِ- قَدْ أَوْحَشُوا مِنْ جَانِبِهِ وَ تَبَاعَدُوا مِنْ قُرْبِهِ» (الخطبة ١٠٩).

يصف الإمام على (ع) تفاصيل الموت وطلوع الروح وحالة الاحتضار بتقرير مصور عن تلك الحالات المحزنة لحظة بلحظة، بحيث تتجسد لكل قارئ وسامع وتؤثر عليه وكأنه يعيش تلك اللحظات بنفسه مودعًا الحياة. يوقظ الإمام بتعابيره الجزلة الغافلين عن تلك اللحظات لكي يستعدوا قبل فوات الأوان.

يقول ابن ميثم في شرح هذه العبارات: هو وصف لا مزيد على وضوحه و بلاغته و فائدته تذكير العصاة بأهوال الموت و تنبيههم من غفلتهم في الباطل بذلك على وجوب العمل له، و تثبيت للسالكين إلى الله على ما هم عليه (ابن‌ميثم، ١٣٧٥: ٣/١١٠).

ويضرب ابن ميثم مثالًا من التوراة حول مشقة الموت فيقول: و قوله: فغير موصوف ما نزل بهم: أي ليس ذلك ممّا يمكن استقصائه بوصف بل غايته التمثيل كما ورد في التوراة: أنّ مثل الموت كمثل شجرة شوك أدرجت في بدن بن آدم فتعلّقت كلّ شوكة بعرق و عصب ثمّ جذبها رجل شديد الجذب فقطع ما قطع و أبقى ما أبقى (م. ن: ١١١).

إذا أمعنا النظر في عبارة «اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِمْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ وَ حَسْرَةُ الْفَوْتِ» فسوف نلاحظ أن الإنسان يتعرض لهجومين اثنين على عتبة الموت، الأول: سكرات الموت وهي حالة تشبه الثمالة وتسبب الاضطراب والهلع للإنسان. الثاني: حسرة فقدان كل ما تعب الإنسان لأجله في الحياة الدنيا وتحمل المشقات لأجله (مكارم الشيرازي، ١٣٧٨: ٤/٥٨٥).

عبارة «فَفَتَرَتْ لَهَا أَطْرَافُهُمْ وَ تَغَيَّرَتْ لَهَا أَلْوَانُهُمْ» تدل على ضعف الأطراف وجميع أعضاء الجسم وتغيير لون الوجه أثناء الموت (الحويي، ١٤٠٠: ٧/٣٣٤).

وتصور عبارة «ثُمَّ ازْدَادَ الْمَوْتُ فِيهِمْ وُلُوجًا» ولوج الموت لحظة بلحظة وتجواله داخل الإنسان. استعار الإمام كلمة ولوج للتعبير عن دخول الموت إلى الجسم وانفصال الروح عن أعضائه واحدًا تلو الآخر مشبهًا إياه بدخول جسم في آخر، ويقصد بذلك التعبير عن تأثير الموت على الجسم وضعف قواه (م. ن: ٣٣٥).

ويعبر الإمام علي (ع) في عبارة «فَحِيلَ بَيْنَ أَحَدِهِمْ وَ بَيْنَ مَنْطِقِهِ» عن توقف اللسان عن العمل قبل سائر الأعضاء، وهذه المعلومات ناتجة عن معرفته (ع) بأسرار الطبيعة، وينبغي القول بأن كلامه هذا ليس كليًا ومطلقًا بل يقصد به من يموت بشكل طبيعي فتفقد حواسه وأعضاءه وظائفها بهذا الشكل (ابن ميثم، ١٣٧٥: ٣/١١٣).

وفي عبارة «وَإِنَّهُ لَبَيْنَ أَهْلِهِ يَنْظُرُ بِبَصَرِهِ وَ يَسْمَعُ بِأُذُنِهِ عَلَى صِحَّةٍ مِنْ عَقْلِهِ وَ بَقَاءٍ مِنْ لُبِّهِ» إشارة إلى هذه الحالة المؤلمة التي يرى فيها الإنسان ويسمع ويدرك كل شيء لكنه يعجز عن الكلام والتعبير عن مبتغاه.

وفي عبارة «يُفَكِّرُ فِيمَ أَفْنَى عُمُرَهُ وَ فِيمَ أَذْهَبَ دَهْرَه» محاسبة للنفس وتأسف وحسرة على الأعمال التي قام بها وندم على معصية الله والغفلة في أيام الفرصة (خوئي، ١٤٠٠: ٣٣٥/٧).

وتدل عبارة «فَلَمْ يَزَلِ الْمَوْتُ يُبَالِغُ فِي جَسَدِهِ حَتَّى خَالَطَ لِسَانُهُ سَمْعَهُ فَصَارَ بَيْنَ أَهْلِهِ لَا يَنْطِقُ بِلِسَانِهِ وَ لَا يَسْمَعُ بِسَمْعِهِ » على تلك المرحلة من الموت التي يتوقف فيها اللسان والسمع عن العمل ولكن بصره لا يزال يعمل (شوشتري، ١٣٧٦: ٣٧٥/١١).

«يُرَدِّدُ طَرْفَهُ بِالنَّظَرِ فِي وُجُوهِهِمْ يَرَى حَرَكَاتِ أَلْسِنَتِهِمْ وَ لَا يَسْمَعُ رَجْعَ كَلَامِهِمْ» تتوقف أعضاؤه عن العمل واحدًا تلو الآخر فلا يبقى له لسان يتكلم ولا أذن تسمع، ويرى الآخرين وهم يتكلمون لكنه لا يسمعهم وهم يحاولون التواصل معه لكنه لا يتمكن من التواصل معهم (مكارم الشيرازي، ١٣٧٨: ٥٨٩/٤).

«ثُمَّ ازْدَادَ الْمَوْتُ الْتِيَاطًا بِهِ فَقُبِضَ بَصَرُهُ كَمَا قُبِضَ سَمْعُهُ» «التياط» من «ليط» بمعنى الالتصاق بشيء والامتزاج به (م. ن:٥٩٠) وهذه الكلمة كناية عن الموت الذي يحيط بوجود الإنسان فتكون الروح على عتبة الخروج من الجسم، وفي هذه الحالة يتوقف بصره عن العمل كذلك.

«وَ خَرَجَتِ الرُّوحُ مِنْ جَسَدِهِ فَصَارَ جِيفَةً بَيْنَ أَهْلِهِ».

«قَدْ أَوْحَشُوا مِنْ جَانِبِهِ وَ تَبَاعَدُوا مِنْ قُرْبِهِ».

خلال الحياة البشرية ليست هناك لحظة مؤلمة وحزينة أكثر من لحظة الموت. فلحظة الانفصال عن الأصدقاء والأقارب والأولاد! لحظة توديع العالم وكل شيء في العالم! وأخيرًا لحظة الانتقال إلى عالم جديد يمكن أن يقترن بمشاكل ضخمة وعواقب مؤلمة للغاية. تصوير الإمام علي (ع) لهذه اللحظات المؤلمة مؤثر لدرجة أن الإنسان يرى نفسه في هذه المواقف الصعبة، وجميعها تذكير لنا بأنه يجب علينا أن نستعد لهذه الأيام من الفناء.

وتجدر الإشارة إلى أن سكرات الموت والأحداث الرهيبة التي تحدث في لحظة الموت تعتمد على نوايا الإنسان وأفعاله التي يمكن أن تجعل تلك اللحظة أكثر لحظات الحياة إيلامًا أو أجمل لحظات الحياة.

الصورة السابعة: الذهاب إلى الموطن الأصلي: «وَ أُوصِيكُمْ بِذِكْرِ الْمَوْتِ وَ إِقْلَالِ الْغَفْلَةِ عَنْهُ وَ كَيْفَ غَفْلَتُكُمْ عَمَّا لَيْسَ يُغْفِلُكُمْ- وَ طَمَعُكُمْ فِيمَنْ لَيْسَ يُمْهِلُكُمْ فَكَفَى وَاعِظًا بِمَوْتَى عَايَنْتُمُوهُمْ حُمِلُوا إِلَى قُبُورِهِمْ غَيْرَ رَاكِبِينَ وَ أُنْزِلُوا فِيهَا غَيْرَ نَازِلِينَ فَكَأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا لِلدُّنْيَا عُمَّارًا وَ كَأَنَّ الْآخِرَةَ لَمْ تَزَلْ لَهُمْ دَارًا أَوْحَشُوا مَا كَانُوا يُوطِنُونَ وَ أَوْطَنُوا مَا كَانُوا يُوحِشُونَ وَ اشْتَغَلُوا بِمَا فَارَقُوا وَ أَضَاعُوا مَا إِلَيْهِ انْتَقَلُوا» (الخطبة ١٨٨).

في هذا الجزء من الخطبة، يشير الإمام (ع) إلى نقطة مهمة يمكن أن تكون دافعًا قويًا للتقوى كما ذكر فيما تقدم من هذه المقالة، وهو ذكر الموت.

تدور العبارة الأولى من هذه القطعة حول تذكر الموت والغفلة عنه لأن تذكر الموت يجنب الإنسان الخطيئة والمعصية، ويذكره بالعودة إلى العدالة الإلهية والوفاء بالوعود. إنه يقلل من رغبة الإنسان بالدنيا وملذاتها العابرة. يكتب المرحوم شوشتري في هذه العبارة: أكثر الناس ذكاءً هم أولئك الذين يتذكرون الموت أكثر (شوشتري، ١٣٧٦: ٣٥٧/١١).

في العبارة التالية، تمت الإشارة إلى غفلة الناس عن الموت، فألقى الإمام باللوم عليهم من خلال مساءلتهم عن سبب هذا الغفلة رغم أن الموت لا يغفل عنهم بل يصل إليهم فجأة ولا يمهل أحدًا. من أجل إيلاء المزيد من الاهتمام لذلك، يعتبر مشاهدة الأموات بين الناس أفضل عبرة في ذكر الموت الذي يتعرض له البشر كل يوم، فيذكر العديد من خصائص الموتى على النحو المبين أدناه لتكون عبرة للناس:

١. ينقل الميت إلى القبر على أكتاف الناس لكن هذا الأمر ليس من اختياره فهو إذن محمول وليس راكبًا.

٢. ينزل الميت إلى القبر ولكن ليس برضاه، فقد عاش عمره يبني دنياه ويسعى لأجلها والآن وقد أتاه الموت وأخذه فكأنه لم يكن في هذا العالم وطالما كانت الآخرة مكانه.

وتشير العبارة إلى أن كل شيء ينتهي في لحظة، فيبتعد الإنسان عن الدنيا وكأنه لم يعش فيها لحظة واحدة ويقترب من الآخرة وكأنه يعيش فيها منذ الأزل (مكارم الشيرازي، ١٣٧٨: ٢٦٩/٧).

٣- يترك الميت منازل الدنيا وسبلها التي كانت محل سكناه.

٤- يقيم الميت في القبر الذي طالما كان يخاف منه وهو أول منزل في عالم الآخرة.

٥- ينفصل الميت عن الدنيا التي تعلق بها، فتخرج تلك النفس من الدنيا التي تعلقت بها سنوات طوال وانغمست في ملذاتها ويتخبط الميت محاولًا الوصول إليها لكنه يغادرها والحسرة تملأ قلبه وحزن الفراق يعذبه بشدة.

٦- لقد فقد هؤلاء الموتى منزلة الآخرة التي انتقلوا إليها لأنهم لم يفعلوا في الدنيا ما هو لصالحهم في الآخرة (ابن ميثم، ١٣٧٥: ٣٣٢/٤).

المقصود بكلمة (من) في عبارة « وَ طَمَعُكُمْ فِيمَنْ لَيْسَ يُمْهِلُكُمْ» هو ملك الموت (شوشتري، ١٣٧٦: ٣٥٨/١١). والمقصود من (ما) في عبارتي «أَوْحَشُوا مَا كَانُوا يُوطِنُونَ- وَ أَوْطَنُوا مَا كَانُوا يُوحِشُونَ» هو منازل الآخرة.

الصورة الثامنة: الموت هو أكبر حقائق الحياة: «فَإِنَّهُ وَ اللَّهِ الْجِدُّ لَا اللَّعِبُ وَ الْحَقُّ لَا الْكَذِبُ وَ مَا هُوَ إِلَّا الْمَوْتُ أَسْمَعَ دَاعِيهِ وَ أَعْجَلَ حَادِيهِ فَلَا يَغُرَّنَّكَ سَوَادُ النَّاسِ مِنْ نَفْسِكَ وَ قَدْ رَأَيْتَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِمَّنْ جَمَعَ الْمَالَ وَ حَذِرَ الْإِقْلَالَ وَ أَمِنَ الْعَوَاقِبَ طُولَ أَمَلٍ وَ اسْتِبْعَادَ أَجَلٍ كَيْفَ نَزَلَ بِهِ الْمَوْتُ فَأَزْعَجَهُ عَنْ وَطَنِهِ وَ أَخَذَهُ مِنْ مَأْمَنِهِ مَحْمُولًا عَلَى أَعْوَادِ الْمَنَايَا- يَتَعَاطَى بِهِ الرِّجَالُ الرِّجَالَ- حَمْلًا عَلَى الْمَنَاكِبِ- وَ إِمْسَاكًا بِالْأَنَامِلِ- أَ مَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَأْمُلُونَ بَعِيدًا- وَ يَبْنُونَ مَشِيدًا وَ يَجْمَعُونَ كَثِيرًا- كَيْفَ أَصْبَحَتْ بُيُوتُهُمْ قُبُورًا- وَ مَا جَمَعُوا بُورًا- وَ صَارَتْ أَمْوَالُهُمْ لِلْوَارِثِينَ- وَ أَزْوَاجُهُمْ لِقَوْمٍ آخَرِينَ- لَا فِي حَسَنَةٍ يَزِيدُونَ- وَ لَا مِنْ سَيِّئَةٍ يَسْتَعْتِبُونَ» (الخطبة ١٣٢).

يصف الإمام (ع) في هذه التعابير الصريحة والمثيرة نهاية حياة الأثرياء الغافلين والمغرورين بالجاه والجلال، خاصة أثناء الموت المفاجئ، على أفضل وجه، إنها تعابير تزيل ستار الغفلة عن أعين البشرية، فتوقظ كل سامع من نوم الغفلة. إن ما يلفت الانتباه في هذه الصور هو العناصر الصامتة بلا حراك.

ضمير "فإنّه" في بداية الخطبة يعود إلى كلام سابق في الخطبة ذاتها فهذه العبارة جزء من خطبة طويلة، أو أنه يدل على تحذير الإمام وإنذاره للنا فيقول لهم إن ما أحذركم منه ليس سوى الموت (ابن ميثم، ١٣٧٥: ٢٧٧/٣).

وبما أن الموت يأتي البشر أجمعين فلا يمكن لأحد تجنبه فقد قرن الإمام كلامه بمختلف أنواع التأكيد وأدواته. يرى العلامة الخوئي صاحب منهاج البراعة في تفسير نهج البلاغة أن هناك عشرة أنواع من التأكيد وهي «أنّ»، ضمير الشأن، الجملة الإسمية، قسم الجلالة، جدّ، الألف واللام، «لا اللعب»، «الحقّ»، «لا الكذب» و استعمال «الاستثناء والحصر» في جملة «ما هو إلاّ ...» (الخوئي، ١٤٠٠: ٢٩٩/٨).

«أسمع» فعل «داعي» فاعل و ضميره يعود إلى «موت» ومفعوله «جميع الناس» وهو غائب، أي أن الداعي إلى الموت ومناديه يوصل صوته إلى مسامع الجميع. «حادي» من «حداء» بمعنى الشخص الذي يقود الإبل بأغنية خاصة ويحثها على السير بسرعة وتشمل هذه الجملة فعلًا وفاعلًا ومفعولًا غائبًا (مكارم الشيرازي، ١٣٧٨: ٤٣٨/٥).

ويحتمل أن يكون لجملة «فلا يغرّنّك سواد النّاس من نفسك» معنيان اثنان: الأول: إذا كنت ترى جماهير الناس حية ترزق فلا تنخدع بذلك ولا تغفل عن الموت. الثاني: لا تجعل الناس يخدعونك ويدفعونك إلى التعلق بالحياة الدنيا والغفلة عن الموت (م. ن: ٤٣٩).

والمراد بسواد النّاس جماهيرهم وكثرتهم حيث نسب الغرور إليهم لأن مشاهدة الكثرة سبب قد يدعو إلى الغرور (ابن ميثم، ١٣٧٥: ٢٧٧/٣).

يقول ابن أبي الحديد: «من» في «من نفسك» بمعنى الباء والمقصود هو أن لا يخدعك الناس بأنك شاب سليم (ابن أبي الحديد، ١٤٠٤: ٢٧٠/٨).

مفهوم جملة « وَ قَدْ رَأَيْتَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِمَّنْ جَمَعَ الْمَالَ وَ حَذِرَ الْإِقْلَالَ » هو: رأيت من قام قبلك بجمع المال والابتعاد عن الفقر.

في عبارة «وَ أَمِنَ الْعَوَاقِبَ طُولَ أَمَلٍ وَ اسْتِبْعَادَ أَجَلٍ.» كلمتا (طول و استبعاد) هما مفعول له (شوشتري، ١٣٧٦: ٢٠٨/١١) والمفهوم هو: إن من

قام قبلك بجمع المال كان يظن نفسه آمنًا من العواقب طويل الأمل بعيد الأجل.

«كَيْفَ نَزَلَ بِهِ الْمَوْتُ فَأَزْعَجَهُ عَنْ وَطَنِهِ وَ أَخَذَهُ مِنْ مَأْمَنِهِ».

«أزعج» من «إزعاج» وهو الطرد من مكان ما (مكارم الشيرازي، ١٣٧٨: ٤٣٩/٥).

في عبارة «مَحْمُولًا عَلَى أَعْوَادِ الْمَنَايَا يَتَعَاطَى بِهِ الرِّجَالُ الرِّجَالَ حَمْلًا عَلَى الْمَنَاكِبِ وَ إِمْسَاكًا بِالْأَنَامِلِ» المراد من «أعواد المنايا» التوابيت والمقصود من "يتعاطى به الرّجال الرّجال" أن الرجال يتناقلون التابوت بين بعضهم ويتناوبون على حمله (ابن ميثم، ١٣٧٥: ٢٧٧/٣).

«حملًا وإمساكًا» حال أو مفعول له(الخوئي، ١٤٠٠: ٢٩٨/٨)

والإمساك بـ « الأنامل» أي بالأيدي ونلاحظ هنا تسمية الكل باسم الجزء (م. ن: ٣٠١).

«أَ مَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَأْمُلُونَ بَعِيدًا وَ يَبْنُونَ مَشِيدًا وَ يَجْمَعُونَ كَثِيرًا».

أ ما رأيتم :استفهام على سبيل التقرير (ابن ميثم، ١٣٧٥: ٢٧٨/٣).

«كَيفَ أَصْبَحَتْ بُيُوتُهُمْ قُبُورًا وَ مَا جَمَعُوا بُورًا».«بورا» أي الهلاك.

«وَ صَارَتْ أَمْوَالُهُمْ لِلْوَارِثِينَ وَ أَزْوَاجُهُمْ لِقَوْمٍ آخَرِينَ».

وهنا يتبادر إلى الذهن كلام آخر للإمام (ع) حيث يقول: «عَجِبْتُ لِمَنْ نَسِيَ الْمَوْتَ وَ هُوَ يَرَى الْمَوْتَى».

«لَا فِي حَسَنَةٍ يَزِيدُونَ وَ لَا مِنْ سَيِّئَةٍ يَسْتَعْتِبُون».

يشير الفعل المجهول « يَسْتَعْتِبُون» إلى أنه بعد انتقال الميت إلى الآخرة فلن يسمح له بطلب المغفرة لذنوبه، لأن العمل الصالح وطلب المغفرة يكون في دار التكليف بينما الدار الآخرة هي دار الثواب والعقاب(خوئي، ١٤٠٠: ٣٠١/٨)؛ «فَيَوْمَئِذٍ لايَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَ لا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ» (الروم/٥٧).

النتيجة

يتميز التصوير في نهج البلاغة بمكانة متميزة تؤثر على نقل المفاهيم. يستخدم الإمام علي (ع) عنصر التصوير لتقريب العقل من الحقائق الملموسة ومساعدته على فهم الحقائق، وتعبير الصورة يلعب دورًا رئيسيًا في خطاب نهج البلاغة، واستخدامه في نقل المفاهيم وفهم الحقائق أمر لا مفر منه.

الموت حقيقة لا مفر منها. تتميز صور الموت في نهج البلاغة بميزات فريدة تثير اهتمام كل مخاطب وترافقه وتؤثر على كل سامع. والغرض من هذه الصور البيانية كلها هو لفت انتباه البشر إلى الموت وعالم الآخرة بحيث يسعى الإنسان في ضوء هذا الاهتمام والانتباه إلى التعويض عما فاته والعودة بأسرع وقت ممكن إلى طريق التوبة، وإبداء عزم وتصميم دائم لإصلاح سلوكه والاستعداد للانتقال من الحياة الدنيا الفانية إلى الآخرة الباقية.

المصادر

نهج البلاغة. صبحي صالح.

ابن أبي الحديد، عبد الحميد بن هبة الله (١٤٠٤ق). *شرح نهج البلاغة*. قم: مكتبة آية الله العظمى مرعشى نجفى (ره).

ابن فارس، احمد بن فارس (١٤٠٤ق). *معجم مقاييس اللغة*. قم: مكتب الإعلام الإسلامي.

ابن منظور، محمد بن مكرم (١٩٩٤م). *لسان العرب*. بيروت: دار صادر.

ابن ميثم، ميثم بن على (١٣٧٥ش). *شرح نهج البلاغة*. ترجمه قربانعلى محمدى مقدم و على اصغر نوابى. مشهد المقدسة: مجمع البحوث الاسلامية.

أنورى، حسن (١٣٨٢ش). *قاموس سخن الكبير*. طهران: انتشارات سخن.

جرداق، جورج (١٣٥٦ش). *عجائب نهج البلاغة*. ترجمه فخر الدين حجازى، طهران: انتشارات بعثت.

الراغب، أحمد، عبد السلام (١٣٨٧ش). *أداء الصورة الفنية في القرآن الكريم*. ترجمه سيد حسين سيدى، طهران: سخن.

راغب الإصفهاني، حسين بن محمد (١٩٩٢م). *المفردات في غريب القرآن*. بيروت: دار القلم.

شادي، محمد ابراهيم عبد العزيز (١٩٩١م). *الصورة بين القدماء والمعاصرين*. الطبعة الاولى، القاهرة: مطبعة السعادة.

شوشترى، محمد تقى (١٣٧٦ش). *بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة*. طهران: دار امير كبير.

صباغ، محمد بن لطفى (١٤٠٩ق). *التصوير الفني في الحديث النبوي*. بيروت: المكتب الإسلامي.

الطباطبايى، محمد حسين (١٣٩٣ق). *الميزان في تفسير القرآن*. قم: مؤسسة مطبوعاتى إسماعيليان.

طريحى، فخرالدين (١٣٧٥ش). *مجمع البحرين*. طهران: مكتبة مرتضوي.

عسكرى، ابوهلال (١٩٨١م). *الصناعتين*. بيروت: دار الكتب العلمية.

قطب، السيد (١٣٥٩ش). *التصوير الفني في القرآن*. ترجمه مهدى فولادوند، طهران: انتشارات بنياد قرآن.

الكواز، محمد كريم (١٣٨٦ش). *أسلوبية إعجاز القرآن البلاغي*. ترجمه سيد حسين سيدي، طهران: سخن.

المصطفوي حسن (١٣٦٠ش). *التحقيق في كلمات القرآن الكريم*. طهران: دار الترجمه ونشر الكتاب.

مصطفى، ابراهيم، أحمد حسن الزيات وحامد القادر (د. تا). *المعجم الوسيط*. طهران: المكتبة العلمية.

مكارم الشيرازي، ناصر (١٣٨٦ش). *رسالة الإمام*. طهران: دار الكتب الاسلامية.

هاشمي الخويي، حبيب الله بن محمد (١٤٠٠ق). *منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة*. طهران: المكتبة الاسلامية.

ياسوف، أحمد (١٣٨٨ش). *جماليات مفردات القرآن*. ترجمه سيد حسين السيدي، طهران: دار سخن.

تصویرگری مرگ در نهج البلاغه

محمود کریمی بنادکوکی[۱]، روح اله کریمی[۲]

تاریخ دریافت: ۱۳۹۵/۰۳/۰۳ **تاریخ پذیرش: ۱۳۹۵/۱۲/۲۳**

۱. دانشیار دانشگاه امام صادق (ع) (نویسندهٔ مسئول)؛ karimiimahmoud@gmail.com

۲. دانشجوی دکتری علوم و معارف نهج البلاغه، دانشگاه پیام نور تهران جنوب؛ karimi1219@gmail.com

چکیده

تصویر از موثرترین ابزارهای نهج البلاغه برای انتقال افکار ومفاهیم به مخاطبان است. امام علی (ع) معانی انتزاعی را به مدد تصاویر، محسوس و خیال انگیز می نمایاند و در قسمت های مختلف نهج البلاغه برای نزدیک ساختن ذهن به حقایق و درک واقیعت ها از عنصر تصویرگری استفاده نموده است. تصویر آفرینی های آن حضرت در موضوع مرگ چنان افراد را به وادی خیال می کشاند که آنها خود را در آن صحنه ومیدان احساس می کنند. دقت در انتخاب الفاظ و روش ترکیب آنها وبهره گیری از انواع صور بلاغی به همراه نغمه دلنشین عبارات چنان طراوتی به توصیفات آن حضرت بخشیده که هر مخاطبی را مجذوب خود ساخته وتحت تاثیر قرار می دهد.

این مقاله هشت مورد از تصویرگری های مرگ را در خطبه های نهج البلاغه مورد بررسی وتحلیل قرار داده که این هشت مورد سایر تصویرهای مرگ را هم به نوعی در خود نشان می دهد. چهره هولناک مرگ در این تابلوها چنان ترسیم گشته که عواطف را برانگیخته و اعماق وجود انسان را لرزان و وجدانهای خفته را بیدار میکند.

کلید واژه‌ها: تصویر، تصویرگری ، مرگ، امام علی(ع) ، نهج البلاغه .